التفكير الدلالي في التراث العربي

الدراسات اللغوية أنموذجا

د. عادل زواقـــــري

مخبر التأويل والدراسات الثقافية المقارنة /كلية الآداب واللغات

جامعة عباس لغرور خنشلة

الملخص:

اهتم النحاة العرب بالمعنى اهتماما بالغا، وكان منطلقَ أي فتوى نحوية على سلامة الكلام وصحته، بل إن التركيب وحدَه لا يُغني عن الحق شيئا إلا إذا توفر المعنى وتحقق التبليغ من الكلام، وجميعُ الأعمال النحوية والبلاغية إنما وُجِدت للربط بين اللفظ والمعنى، والتركيب والدلالة، ولذلك لم يهمل النحاة الجانب الدلالي منذ سيبويه إلى زمننا هذا، ولم يستطع النحاة بناء نحو جاف من المعنى والدلالة، ولم يستطع علماء البلاغة بناء دلالة دون لفظ أو تركيب أو إعراب، ويعتقد بعضٌ أن الدراسات العربية التراثية إنما هي نحوية محضة لا صله لها بالمفاهيم اللسانية والدلالية التي شاعت في العصر الحديث، لكن المتصفح لكتب الأوائل يلحظ أفكارا متميزة عندهم، كما أن ثلة من اللسانيين المعاصرين سواء أكانوا عربا أم غربيين انتبهوا إلى تلك الأفكار الفذة لعلماء العربية الأوائل.

الكلمات المفتاحية: الدلالة، النحو، التراث، سعة الكلام.

<u>Summary:</u> Arabic gramticals were very interested by **the sense**, which was the starting point of any grammatical advisory, regarding to the correct speech . even more, because the structure alone is not enough, unless the meaning is provided and the communication is achieved by speech, and all the grammatical and rhetorical works were found inorder to link between **the word** and **the sense ,** and between **the structure** and **the semantic** , that is why arabic gramticals did not ignore the semantic side from the **sibawayh era** until nowadays, so they could not build grammar without the sense and the semantic, On the other hand; rhetoricals could not build semantic without the sense, the structure or the expression.

Some bodies think that the arabic heritage studies are pure grammatical; it has no relationship with the current linguistic semantic and concept, but if you look hard you will find unique ideas, as that some modern linguists, either arabes or western, have noticed those great ideas of the early arabic scholars .

النحو والدلالة:

إن للنحو تعريفات كثيرة لكنها في الأخير كلها تصب في جانبين كبيرين هما: التركيب والدلالة،وهذا التركيب ليس تركيبا ساذجا إنما هو خاضع لمنطق العرب في كلامهم والخاص بلسانهم، ولذلك كان النحاة يحتكمون إلى ما وصلهم من كلام فصحاء العرب، ومن أشهر هذه التعريفات تعريف ابن جني الذي يقول فيه عن النحو بأنه(انتحاء سمت كلام العرب من إعراب وغيره)[1]، فالنحو عنده ليس إبداعا بقدر ما هو اتباع لسنن العرب في كلامهم، والنحاة لم يضعوا تلك القوانين النحوية من تلقاء أنفسهم إنما كشفوا عنها وضبطوها واستنبطوها من القرآن الكريم وكلام العرب،إن هذا الانتحاء لطريق العرب في كلامهم قائم على مراعاة الدلالة وقد أشار إليها ابن جني بمصطلح الإعراب، لأن الإعراب إنما هو تحقق المعنى بالحركات الإعرابية. ومن التعريفات الواردة في المعاجم العربية ما جاء في مفتاح العلوم للسكاكي، حيث يقول عن النحو بأنه:(معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا)[2].

وفي هذا التعريف مسألة دلالية مهمة جدا، وهي أن تركيب الكلم يكون وفق سمت العرب في تخاطبهم وتحدثهم من أجل تحقيق غاية مهمة وهي تأدية أصل المعنى وليس المعنى فقط،وهو إشارة إلى مفهوم التبليغ في الكلام،فربما كان التركيب جائزا وصحيحا من حيث ترتيب عناصر الجملة لكن التبليغ لم يتحقق،ولذلك كان العرب يتنافسون في نظم الشعر والبلاغة في الكلام، وكل واحد يريد أن يكون أبلغ من غيره وأكثر إعجازا،وقد أشار الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح إلى مسألة مهمة في فكر النحاة الأوائل ونظريتهم اللغوية فهم ميزوا (في تحليلهم الصارم للغة بين الجانب الوظيفي من جهة وهو الإعلام والمخاطبة من جهة، أي تبليغ الأغراض المتبادلة بين ناطق وسامع، وبين الجانب اللفظي الصوري من جهة

---

[1]- ابن جني، أبو الفتح عثمان-الخصائص- تح: محمد علي النجار-المكتبة العلمية-دط، دتا-ج1-ص34.

[2]- السكاكي، محمد بن علي- مفتاح العلوم-تعليق: نعيم زرزور- دار الكتب العلمية-بيروت-ط1 1407هـ-1987م- ص33.

أخرى)[1]، فهم درسوا الجانب اللفظي الصوري المتمثل في الكلم المركب المنطوق وفق سمت كلام العرب، وركزوا كثيرا على الوظيفة الأساسية للغة وهي التبليغ والإعلام، رغم أن الدكتور عبد اللطيف حماسة ذكر أن أتباع مدرسة الكوفة قالوا عن سيبويه إنه اهتم بالمعنى أكثر من اهتمامه باللفظ، (أي أنه أولى الجانب الإدراكي رعاية واهتماما على حساب الجانب الصوتي، أو بعبارة أخرى أنه يهتم بالدلالة وليس بالدال، أو بالمعنى الداخلي وليس بالشكل الخارجي)[2]، وسيتبين هذا الموقف عند تحليل بعض القضايا الدلالية النحوية في كتاب سيبويه و شُرّاح الكتاب.

وليس المقام مقام عرض كل تلك التعريفات لأنها معلومة مشهورة، لكن المقام هو مقام كشف بعض القضايا الدلالية في التراث العربي من خلال ما جاء في كتاب سيبويه وبعض الكتب الأخرى التي رجع فيها مؤلفوها إلى كتاب سيبويه.

الكلام والنحو والدلالة:

إن ما يميز كتب النحاة الأوائل أنها جاءت بلغة خاصة في ذلك الزمن ومصطلحات مخصوصة أيضا، ومعظم الكتب الأولى شُرِحت فيما بعد، وقد تباينت تلك الشروحات، وأهم كتاب في علم العربية: كتاب سيبويه، لأنه أول كتاب منظَّم مبوب، وقد شرحه علماء بارعون، مثل السيرافي والرماني، وهذان الشرحان النفيسان بيَّنا كثيرا مما لم يتضح من كلام سيبويه، لأنه أحيانا يختصر فلا يمثل كثيرا ولا يشرح، وهذا كما قلت لأنه كتبه بلغة علمية شاعت في عصره فلا يحتاجون إلى شروحات كثيرة، لكن لما بعد الزمن ودخل المنطق اليوناني التبست كثير من المفاهيم النحوية على المتأخرين، وليس كتاب سيبويه هو ما التبس فقط بل هناك كتب كثيرة أخرى، فلو(قارنا بين كتاب سيبويه في إشاراته الكاشفة وكتاب نحوي آخر بعده بقرون لوجدنا من جاء بعد سيبويه لم يأخذ منه إلا الجانب

---

[1]– عبد الرحمن الحاج صالح– بحوث ودراسات في اللسانيات العربية– موفم للنشر–ط2012م–ج1–292.

[2]– محمد حماسة عبد اللطيف–النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي والدلالي–دار الشروق–مصر–ط1420هـ–2000م– ص40.

التقنيني..)[1]. أي ركزوا على القواعد النحوية وأهملوا كثيرا من المفاهيم العلمية، ولذلك عرف نحو الأولين بأنه نحو علمي بالدرجة الأولى ثم تعليمي بالدرجة الثانية، أما نحو المتأخرين فيغلب عليه الجانب التعليمي، ويقل أن نجد عالما في المتأخرين كان يدرس النحو العلمي، ومن هؤلاء الذين أبدعوا رغم تأخرهم: الرضي الاستراباذي وابن يعيش.

تحدث سيبويه في كتابه عن مسائل دلالية مهمة جدا، أوردها في باب سماه: باب الاستقامة من الكلم والإحالة: حيث قسم الكلام خمسة أقسام: يقول:(فمنه مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح ومنه ما هو محال كذب)[2]، ثم يبين حقيقة كل نوع إما بالتمثيل أو بالشرح المختصر جدّا، يقول: (فأما المستقيم الحسَنُ فقولك: "أتيتك أمس"، و"سآتيك غدا"، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: "أتيتك غدا"، و"سآتيك أمس"، وأما المستقيم الكذب فقولك:" حملتُ الجبل"، و"شربتُ ماء النهر" ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: "قد زيدا رأيت"، و"كي زيدٌ يأتيك"، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس)[3]، فسيبويه يتحدث هنا عن استقامة الكلام، وما يخالف الاستقامة بأحوال عدة، فالكلام في صحته واستقامته درجات وهذا شبيه بالأحكام الفقهية عن الأصوليين، وقد جاء كلام سيبويه مختصرا جدا، فهو بين معنى كل قسم إما بمثال أو مثالين وإما بشرح مع التمثيل، لكن كلامه التبس على المتأخرين واحتاج إلى توضيح، ولذلك جاء شُرَّاحٌ لكتابه يبينون المعاني المقصودة.

ويمكن تحليل تلك الأنواع التي ذكرها سيبويه بالاستناد إلى شُرَّاح كتابه ومن أورد هذه الأقسام من غير شرّاح الكتاب.

---

[1]- المرجع نفسه-ص27

[2]- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر-الكتاب- تح: عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي القاهرة-ط3 1408هـ-1988م -ج1-ص25.

[3]- المصدر نفسه-ص25-26.

أعطى سيبويه مثالين دالين على معنى المستقيم الحسن وهما: أتيتك أمس، وسآتيك غدا، ويفهم منهما أن المستقيم الحسن من الكلام إنما هو الذي لا يتضمن خللا في التركيب والدلالة، يقول السيرافي(لأن ظاهره مستقيم اللفظ والإعراب غير دال على كذب قائله، وكذلك كل كلام تكلم به متكلم فأمكن أن يكون على ما قال، ولم يكن في لفظه خلل من جهة اللغة والنحو فهو كلام مستقيم في الظاهر)[1]، فالاستقامة تكون في اللفظ أي الجانب الصوري المرتبط بترتيب عناصر الجملة العربية، فالفعل في المثال السابق جاء ماضيا والظرف الزماني الذي لحقه لم ينقضه وهو"أمس"، وهو أيضا مستقيم الإعراب فلم يخالف القواعد النحوية المتعارف عليها، كما أن المتكلم لم يقل كلاما يخالف الحقيقة وعبر عنه السيرافي بعدم كذب المتكلم، فهو من حيث اللغة أي اللفظ سليم مستقيم ومن جهة قواعد النحو كذلك، وهو أعلى مراتب السلامة والصحة في الكلام، ولذلك بدأ سيبويه به.

والنوع الثاني من المستقيم هو المستقيم الكذب، وهو ما يطابق المجاز في البلاغة لكن سيبويه لم يصطلح عليه هكذا فقد كان حينها هو ومن عاصره يوظفون مصطلح: سعة الكلام، مثل: حملت الجبل، فقانون الجملة العربية هنا متوفر لكن الكلام في حد ذاته كذب من حيث هو كلام؛ لأن حمل الجبل مستحيل الحدوث، وكذلك قوله: شربت ماء البحر، فهو مستقيمٌ نحويا كذبٌ دلالةً، والنوع الثالث هو: المستقيم القبيح، فالقبح إنما كان بسبب حدوث خلل في ترتيب عناصر الجملة، رغم أن المعنى واضح والفكرة تصل إلى السامع، لكن قواعد الجملة العربية على خلاف ذلك، فالأداة "قد" تتصل بالفعل وليس بالاسم، كان الكلام فيه ثقيلا فوصفه المؤلف بالقبيح، أما المحال فإما أن يكون محالا فقط أو محالا كذبا، فأما الأول فكقولنا: أتيتك غدا، فالتناقض جلي في الكلام لأنه استعمل الفعل الماضي مع ظرف مستقبلي وهذا لا يكون بحال، أما المحال الكذب فمثل: "سوف أشرب ماء البحر أمس" أما كونه محالا فقد سبق شرحه، وأما الكذب فلوجود ما يخالف الحقيقة أي المجاز.

---

[1]- السيرافي، الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد- شرح كتاب سيبويه- تح: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي-دار الكتب العلمية-بيروت-ط1 1429هـ-2008م- شرح السيرافي-ج2-89.

ويأتي الرماني ليوضح أكثر مقصود سيبويه من تلك التقسيمات، فالمستقيم من الكلام(هو الجاري على أصل صحيح، فإن كان في اللفظ فقط فهو مستقيم بهذا التقييد، وإن كان في المعنى فقط فهو مستقيم فيه، وإن كان في المعنى واللفظ فهو مستقيم على الإطلاق وهو الجاري على أصل صحيح في اللفظ والمعنى)[1]، فالكلام المستقيم هو الذي يوافق كلام العرب وسُنَنَهم، وكل ما قيس على كلامهم دون حيد فهو مستقيم، وقد ذكر مصطلح الأصل إشارة منه إلى ما تحدثت به العرب الفصحاء، والاستقامة عند الرماني تتعدد، فهي قد تكون في اللفظ أي تركيب الجملة من عناصرها المألوفة ولا يعني بالضرورة أنها سليمة في المعنى أو مستقيمة، وقد تكون في المعنى فقط دون اللفظ حين يحدث خلل في تركيب الجملة بسبب التقديم أو التأخير، وقد تكون الاستقامة في اللفظ والمعنى معا، ولم يقدم الرماني أمثلة توضيحية لهذه الأنواع الثلاثة من الاستقامة، لكنها واضحة جدا، كما أن سيبويه يخصص كلامه دون تبيين، وقد أطلق على المستقيم لفظا ومعنى: المستقيم الحسن، ولم يشأ أن يقول: مستقيم مستقيم.

ولم يرتب الرماني أقسام الكلام في شرحه كما رتبها سيبويه، فهو انتقل إلى الكلام المحال ثم عاد إلى المستقيم، وأضاف الرماني –كما فعل الأخفش– نوعا ثالثا هو الخطأ يقول: (وقسمة الكلام في المستقيم وخلافه ثلاثة أوجه: مستقيم ومحال وخطأ ليس بمستقيم ولا محال)[2]، فالمستقيم الحسن مثل: جاء زيد، هو (الجاري على أصل هو أولى)[3]، أي أنه صحيح من جميع النواحي، نحويا ودلاليا، ويجوز القياس عليه، وأعطى مثالا عنه هو:" زيد ضربته" فهو صحيح من جميع الجوانب، أما المستقيم القبيح فهو(الجاري على أصل ليس بأولى)[4]، وهذا النوع سماه الضعيف، مثل: زيدا ضربته، وذلك أنه وجه ضعيف عند أكثر النحاة ولا يقاس عليه، وربما جوزه بعضهم فقط،

---

[1]–الرماني، علي بن عيسى–شرح كتاب سيبويه–تح: محمد إبراهيم يوسف شيبه–رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه جامعة أم القرى– المملكة العربية السعودية- 1414-1415هـ-ج1-150.

[2]– المصدر السابق

[3]– المصدر نفسه.

[4]– المصدر نفسه.

فهو من باب التنازع، لأن الفعل "ضرب" هنا له مفعولان: زيدا، والضمير المتصل، وأما المستقيم الكذب فلم يعط مثالا يوضح معناه، إنما شرحه، يقول: (والمستقيم الكذب إنما هو مستقيم في اللفظ فقط، كالخبر الجاري على أصل صحيح في اللفظ مما مخبره على خلاف ما هو به)[1] ، ولو عدنا إلى المثال الذي قدمه سيبويه: "حملت الجبل" لفهمنا معنى المستقيم في اللفظ فقط، أي أنه صحيح لفظا ونحويا لكنه من حيث المعنى مخالف للحقيقة والواقع، وهو ما يطلق عليه المجاز، لأن المجاز خلاف الحقيقة.

ولما يكون الكلام حقيقة وسليما لفظا فهو مستقيم صدقٌ، والظاهر أن الرماني إنما أراد الكلام الذي لا مجاز فيه مع سلامته لفظا، مثل: "حملت الكتاب" و" شربت بعضا من ماء البحر" وهنا لا نكاد نفرق بين المستقيم الحسن والمستقيم الصدق، فهو يُعرِّف المستقيم الصدق بقوله:(والمستقيم الصدق خبرٌ مخبرُه على ما هو به جار على أصل صحيح في اللفظ)[2]، ولما قال عن المستقيم الصدق أنه : خبر، كأني به يريد أن يقول إنه أسلوب خبري تضمن الحقيقة التي أرادها المتحدث، ويذكر نوعا آخر لم يشر إليه سيبويه وهو المستقيم الذي ليس بصدق ولا كذب، وهو(الذي تصح له فائدة مما ليس بخبر)[3]وذكر أمثلة توضيحية وذلك مثل: أسلوب الأمر والاستفهام والتمني، فقولنا: "اجتهد في دراستك" أمر له فائدة للمتلقي وهي تقتضي التنفيذ في الأصل لأن الآمر أكبر وأعظم من المأمور، وكذلك النداء، كقولنا: "يا خالد أقبل"، فهذا النداء كلام مستقيم في حد ذاته وهو لا يحتمل الصدق أو الكذب، فهو مزج بين النحو والبلاغة.

---

[1]- المصدر نفسه- ص150-151.

[2]- المصدر نفسه-ص151.

[3]- المصدر نفسه.

ثم انتقل الرماني إلى الكلام المحال، فقال: (و المحال الذي ليس له معنى يمكن أن يعتقد لتناقضه نحو: "سوف آتيك أمس" و" أتيتك غدا")[1]، فالمحال هنا من خلال كلام الرماني معناه: عدم كون المعنى صحيحا بسبب التناقض حين يجتمع الماضي والمستقبل: ف:"سوف" لا تجتمع مع: "أمس"، والفعل الماضي" أتيتك" لا يجتمع مع:" غدا".

فالمحال تضمن تناقضا ولذلك أعطى مثالا يوضح به هذا القسم، انطلاقا من منطق الفلاسفة اليونان وهو" الجسم قديم لم يزل" لأن القديم يقتضي الزوال في جميع الموجودات ماخلا الله عز وجل، فالمحال هو: (الخبر الذي له معنى يمكن أن يعتقد، إلا أنه مُضَمَّن بالتناقض)[2]، أما المثال الذي ذكره سيبويه في باب المحال الكذب:" سوف أشرب ماء البحر أمس" فقد سماه: محالا لا يجوز فيه صدق ولا كذب، لأنه أصلا لا يفيد معنى يمكن أن يعتقده السامع [3]، ويذكر هنا الرماني رأي الأخفش الذي قال بأن المحال ليس له معنى يصلح أن يقال فيه إنه كذب أو صدق، وهذا المثال الذي سماه سيبويه: محال كذب، ينتمي إلى ما قاله الأخفش بأنه لا يصلح أن يقال فيه صدق أو كذب[4].

ومن الذين خالفوا سيبويه في هذا التقسيم للكلام أبو حيان التوحيدي، الذي يقول(من الكلام ما هو مستقيم حسن، ومنه ما هو مستقيم محال، ومنه ما هو مستقيم قبيح، ومنه ما هو محال كذب، ومنه ما هو خطأ)[5]، لكنه لم يقدم أي مثال يشرح به كلامه، فالمستقيم عنده يكون محالا أيضا، وقد عرفنا أن المحال عند سيبويه

[1]- المصدر نفسه.

[2]- المصدر نفسه-151.

[3]-انظر المصدر نفسه.

[4]- انظر المرجع نفسه.

[5]- أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس البغدادي-الإمتاع والمؤانسة-تصحيح: أحمد أمين، أمين الزين-مكتبة دار الحياة-دط، دتا-ج1-ص126.

هو الكلام الذي أحيل عن استعماله الحقيقي بسبب التناقض الذي فيه، مثل: أتيتك غدا، فلا يجتمع الماضي من الأفعال مع المستقبل من الظروف، والمحال إما محال فقط وإما محال كذب، ولم يقل سيبويه: مستقيم محال، كما أن أبا حيان التوحيدي ذكر الخطأ كما فعل الأخفش قبله.

سعة الكلام والنحو:

سعة الكلام أو اتساع الكلام مفهوم مهم جدا في كتب النحاة الأوائل، فهو مرتبط بالمعنى الذي يقصده المتحدث، يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عنه انطلاقا مما ورد عند الجيل الأول من علماء العربية(أما سعة الكلام فهي عامَّةً ما يصاب به الكلام من الحذوف أو التقديم والتأخير وإرادة معنى آخر غير المعنى الموضوع للفظ وهو المجاز)[1]، أي أنه توسع في الأصل وتغيير في التركيب الأصلي للجملة، وصولا إلى ما سمي بعد سيبويه بالمجاز، وقد تحدث سيبويه عن المجاز وتوسع فيه من جاء بعده، يقول سيبويه مبينا حقيقة سعة الكلام:(أما قوله: أدخل فوه الحجرَ، فهذا أجري على سعة الكلام، والجيد: أُدخل فاه الحجرُ، كما قال : أدخلت في رأسي القلنسوةَ، والجيد: أدخلت في القلنسوة رأسي)[2]، حيث ذكر سيبويه كلاما يخالف المتعارف عليه من باب المبالغة والتوسع ، فهذه أوجه جائزة عند العرب لأنهم يتوسعون في الكلام، وذكر سيبويه توسعا آخر في الكلام يقول:(ومن ذلك قولهم أكلت أرض كذا وكذا، وأكلت بلدة كذا وكذا، إنما أراد: أصاب من خيرها وأكل من ذلك وشرب، وهذا الكلام كثير منه ما مضى وهو أكثر من أن أحصيه)[3]، وهذا شبيه بما ذكره سيبويه أثناء حديثه عن الكلام المستقيم الكذب، لأنه ذكر الكل وأراد الجزء والبعض.

---

[1]-عبد الرحمن الحاج صالح-الخطاب والتخاطب—موفم للنشر-ط2012-ص116.

[2]-سيبويه-الكتاب-ج1-ص181.

[3]-المصدر نفسه-ص214-215.

وهذا الاتساع في الكلام صار يُعرف عند المتأخرين بعد سيبويه بالمجاز، ابتداء من الجاحظ، فقد أورد في كتابه "الحيوان" أمثلة وأطلق عليها المجاز[1]، وسيبويهِ لم يستعمل هذا المصطلح إنما ظهر متأخرا، وعقد الجاحظ في كتابه الحيوان بابا سماه: "باب آخر في التشبيه والمجاز والأكل" وذكر أمثله كثيرة مما يُعرف الآن بالمجاز، وقد قال قبل ذلك كلاما مهمًّا يبين فيه المجاز(وقد يقولون ذلك أيضا على المثل والاشتقاق وعلى التشبيه)[2]، واسم الإشارة: "ذلك" يعود على الأكل ومشتقاته، حيث يرد مجازا كقوله تعالى:﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾[3]، لأن النار لا تأكل حقيقة، فالأكل خاص بالإنسان والبهائم، وجاء ابن قتيبة أيضا ليبين حقيقة المجاز أو ما أطلق عليه سيبويه سعة الكلام، يقول:(وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بالخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز)[4]، والمتأمل في كلام ابن قتيبة يدرك أنه حدده أكثر من سابقيه، فقد توسع فيه كثيرا فهو عنده(يشمل كل طرق الكلام الخارج عن الأصل الموضوع له وتنوعاته)[5]، وقد شاع في عصرنا أمر مخالف لما عهده علماء العربية القدامى وهو أن المجاز حديثا صار يراد به المجاز اللغوي والاستعارة فقط، وهو ربما من آثار النحو التعليمي والبلاغة التعليمية، لأن العلماء فيما بعد مالوا إلى التقسيمات والتبسيط على المتعلمين فحدث تضييق في معنى المجاز، لكن كلمة المجاز في العصور الأولى بعد سيبويه كانت تدل على (كل ما ليس راجعا إلى الدلالة الوضعية بما في ذلك الحذوف والتقديم

---

[1]- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر-الحيوان-تح عبد السلام محمد هارون-مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده-مصر-دط، دتا-مج5-ص38.

[2]-المصدر السابق-مج5-ص23.

[3]- آل عمران/183.

[4]- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم-تأويل مشكل القرآن-شرح: السيد أحمد صقر-دط، دتا-ص20-21.

[5]- عبد الرحمن الحاج صالح-الخطاب والتخاطب-ص117.

والتأخير مما يدخل في سعة الكلام، فهذه الفنون جعلها ابن قتيبة كلها تحت اسم المجاز وستكون موضوع علم البلاغة بعد القرن الرابع)[1]، والمقصود بالدلالة الوضعية الوضع الأصلي للكلام قبل التوسع فيه، وقد وجد عالم فذ ذكر المجاز والاتساع على حد سواء وهو عبد القاهر الجرجاني يقول(اعلم أن طريق المجاز والاتساع في الذي ذكرناه قبل أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها ولكن تريد معنى ما هو ردف له أو شبيه)[2]، ومن الأوائل الذين حددوا المجاز بمعناه المعروف اليوم، أبو بكر الجصاص الذي يقول:(فالحقيقة هي اللفظ المستعمل في موضعه الموضوع له في اللغة، والمجاز هو المعدول به عن حقيقته والمستعمل في غير موضعه الموضوع له في أصل اللغة)[3]، وعلى هذا التعريف والتفريق سار كل من جاء بعده، فالحقيقة هنا عند الجصاص يقابلها عند سيبويه أصل الوضع والمجاز يقابله من بعض النواحي ما سماه سيبويه الاتساع، لأن الاتساع عند سيبويه أوسع بكثير.

ويجب التأكيد على أهمية الاستعمال في مفهوم الاتساع، فهو- أي الاتساع-لا يتحقق إلا في استعمال اللغة وهو ما يتضح من كلام سيبويه ومن عاصره لما ذكروا الاتساع، وحتى المجاز كما شاع فيما بعد لا يتحقق إلا في استعمال اللغة.

أهمية المعنى عند النحويين :

لا يمكن فصل المعنى عن النحو، فهو الهدف من اللغة في حد ذاتها، وليس من الغريب أن يهتم سيبويه به لكن بطريقة علمية فذة، حيث استعمل مصطلح المستقيم وما يتبعه من أجل الربط بين الشكل والمضمون، أو اللغة والدلالة، (فقد بين سيبويه لأول مرة في تاريخ علوم اللسان هذه المرة أيضا أن اللفظ والمعنى ينفرد كل واحد عن الآخر بالاستقامة أو عدم الاستقامة تخصه هو دون الآخر، فقد يكون اللفظ سليما ليس فيه خطأ من حيث

---

[1]-المرجع نفسه-ص118.

[2]-الجرجاني، عبد القاهر-دلائل الإعجاز-تعليق: محمد رشيد رضا-دار المعرفة-بيروت-ط3-1422هـ-2001م-ص196.

[3]- الجصاص، أحمد بن علي الرازي-الفصول في الأصول- تح:عجيل جاسم النشمي-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-السعودية-ط1414هـ-1994م- ج1-ص46.

هو لغة أو صيغة أو تركيب وأصوات أي من حيث النحو والمعجم والأداء، ويكون المعنى مع ذلك غير سليم غير معقول أو غير صحيح أو العكس)[1]، وهذا الفصل في تحليل اللفظ والمعنى إنما بسبب اتساع العرب في خطاباتهم وتنويعهم لها، فالسلامة النحوية إن لم تتحقق معها السلامة الدلالية لم يتحقق التبليغ الذي هو أساس اللغة، ويجب التأكيد هنا أن حديث سيبويه عن الاستقامة والإحالة لا يندرج ضمن البلاغة، إنما يرجع إلى علم النحو وعلم الدلالة[2]، فإشارته إلى مفهوم التوسع الذي صار يعرف فيما بعد المجاز لا يخرج كلامه من دائرة النحو.

إن النحو الذي أسسه سيبويه ومن كان معه يهتم بالمعنى اهتماما بالغا، فنحو المتقدمين-كما يقول الصفدي-(غالبه معان وبيان مثل ما جاء عن الرماني والفارسي وابن جني على تأخر زمانهم وأكثر ما هو الآن مدون في علم المعاني مذكور في كتب القوم)[3]، وسبب ذكر الصفدي لهؤلاء رغم تأخرهم عن سيبويه هو أنهم حافظوا على تلك الأفكار العلمية المتميزة في النحو العربي، ولم يتأثروا بالمنطق اليوناني كما حدث لكثير من معاصريهم، فهؤلاء القدامى(في جميع تحليلاتهم لنحو العربية كانوا يطبقون على المعاني ما كانوا يطبقون على الأوضاع اللغوية في جميع مستوياتها وهو التقسيم إلى أصول وما يتفرع منها لفظا ومعنى ووضعا واتساعا)[4]، لأن اللغة وضع واستعمال، فالوضع هو تلك الأصول التي يبنى عليها الكلام ويقاس عليها، أما الاستعمال فإنه يتسع بين المستعملين ومن قبيلة لأخرى، حتى يتحقق ما يعرف بالأغراض البلاغية للكلام، وهذا ليس من اختصاص النحو، لكن النحو يهتم بتلك المعاني المتضمنة في الكلام، وقد اهتم سيبويه والنحاة باستعمال اللغة عند المتكلمين وما يترتب عنها من دلالات كثيرة.

---

[1]- عبد الرحمن الحاج صالح-الخطاب والتخاطب-ص113.

[2]- انظر المرجع نفسه-ص115.

[3]- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك-تح: محمد علي سلطاني-مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق-دط، دتا-ص281-282.

[4]-عبد الرحمن الحاج صالح-الخطاب والتخاطب-ص119.

ولذلك فسيبويه لما درَس اللغة لم يكن هدفُه(التمييز بين الجائز وغير الجائز، بل يتتبع كل الضروب الجائزة من الكلام مقارنا فيما بينها ومعتمدا في ذلك على معنى "الحديث" كما يقول، وما يمكن أن يحصل من تصاريف الباب الواحد كما جاء في كتابه عن مثل تقديم المفعول به)[1]، فربما اعتقد بعض أن كتاب سيبويه جاء من أجل ضبط اللغة فقط ومنع اللحن، لكن الكتاب أوسع من ذلك بكثير، فهو يتطرق إلى جميع الأوجه التي تجوز عند العرب، ويحاول تخريجها، لأن العرب كانوا يتوسعون في كلامهم.

خاتمــة:

إن تلك الأمثلة التي تمَّ الوقوف عندها من خلال تحليل سيبويه وشراح كتاب سيبويه تبين أن النحاة العرب الأوائل اهتموا بالنحو والدلالة، فقد أدركوا أنه لا نحو دون دلالة، وأن النحو يهدف إلى تبليغ المعاني تبليغا جيدا، ولم يكتف العرب الفصحاء بتوظيف الكلام البسيط المباشر في خطاباتهم، إنما كانوا يتوسعون لأغراض خطابية متعددة، ولما انتبه علماء العربية إلى تلك الاستعمالات درسوها دراسة علمية واستخرجوا منها أحكاما، وقد رأينا كيف قسَّم سيبويه الكلام أقساما عدة من حيث اللفظ والمعنى، وبيَّن درجات صحة الكلام وما هو أصل وما هو فرع، وبيّن أن السلامة قد تكون في اللفظ فقط دون المعنى وقد تكون في المعنى دون اللفظ ، أو تكون في اللفظ والمعنى، وهي أعلى درجات السلامة في الكلام.

---

[1]- المرجع نفسه-124.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1- ابن جني، أبو الفتح عثمان-الخصائص- تح: محمد علي النجار-المكتبة العلمية-دط، دتا.

2- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم-تأويل مشكل القرآن-شرح: السيد أحمد صقر-دط، دتا.

3- أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس البغدادي-الإمتاع والمؤانسة-تصحيح: أحمد امين، أمين الزين-مكتبة دار الحياة-دط، دتا.

4- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر-الحيوان-تح عبد السلام محمد هارون-مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده-مصر-دط،دتا.

5- الجرجاني، عبد القاهر-دلائل الإعجاز-تعليق: محمد رشيد رضا-دار المعرفة-بيروت-ط3-1422هـ-2001م.

6- الجصاص، أحمد بن علي الرازي-الفصول في الأصول- تح:عجيل جاسم النشمي-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-السعودية-ط1414هـ-1994م.

7- الرماني، علي بن عيسى-شرح كتاب سيبويه-تح: محمد إبراهيم يوسف شيبه-رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية- 1414-1415هـ.

8- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر-الكتاب- تح: عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي القاهرة-ط3 1408هـ-1988م.

9- السيرافي، الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد- شرح كتاب سيبويه- تح: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي-دار الكتب العلمية-بيروت-ط1 1429هـ-2008م.

10-الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك-تح: محمد علي سلطاني-مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق-دط، دتا.

عبد الرحمن الحاج صالح

11-الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية- موفم للنشر- الجزائر-ط2012.

12-بحوث ودراسات في اللسانيات العربية-ج1-موفم للنشر-الجزائر-ط2012م.

13- محمد حماسة عبد اللطيف-النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي والدلالي-دار الشروق-مصر-ط11420هـ-2000م.